٢ ـ الغزالى وعلم النفس

للاستاذ حمدى الحسينى

العقـــل

بينا فى المقال السابق أن الغزالى رحمه الله لم يستطع أن يحل عقده النفسية بالتأمل الذاتى فانقلب ذلك التأمل مرضاً نفسياً مستعصياً وهو ما يسميه علماء النفس المعاصرون بمرض (التأمل الذاتى المستمر) .

فزاد ذلك التأمل المستمر فى آلامه وضاعف فى شقائه وعنابه ولكنه على كل حال كان مؤمناً بضعفه أمام عظمة الله فخاف عذابه ورجا ثوابه فخضع لسلطانه الخضوع المطلق، وانقاد لأوامره الانقياد الأتم . وقد دفعه هذا اليقين إلى العمل فى سبيل نقل آرائه وأفكاره إلى المسلمين ليكون بها فى نفوسهم إيمانا كايمانه، ويقيناً مستولياً على القلوب كيقينه، فكان له فى هذا السلوك تنفيس وتنسام كانا سبباً فى احتماله العظيم لمضاضة الحرمان وغضاضة الازواء والنسيان. وليس من شك فى أن أحسن أنواع سلوكه رحمه الله هو كتابته هذه الكتب الكثيرة القيمة . التى أودعها تجاربه وآراءه وافكاره ومعتقداته لا سيما كتابه النفيس القيم — احياء علوم الدين — الذى نعتبره من أثمن الكتب الاسلامية فى الدين والآداب والأخلاق والتربية وعلم النفس . فقد دون فيه صوراً متعددة لنتائج تأملاته الطويلة بدأ بعضها بألوان متألفة متسقة وبعضها الآخر بألوان متنافرة مختلفة . فكان فى تدوينها خير للعلم وموعظة حسنة للتحليل النفسى والتأمل الذاتى .

ولنأخذ الآن بعد هذه المقدمة كتاب الأحياء الذى أودعه الغزالى نتيجة مجهوده الفكرى وصفاوة تأملة النفسى فندرسه دراسة تصل بها إلى ما رمينا اليه من غرض ، والله الموفق لما فيه الخير .

لايزال علماء النفس مختلفين فى ماهية العقل وحقيقته فلهم آراء كثيرة متضاربة ولكنهم جادون فى البحث عن هذه الحقيقة . ونحن وإن كنا لم نقف لعلماء النفس على رأى إجماعى فى موضوع العقل . فقد رأيناهم يعتبرون اللاشعور أو العقل الواعى بمثابة أجزاء للعقل ، فالعقل فى نظرهم هو اللاشعور بخيره وشره، وهو الشعور بحلوه ومره.

ليس فى هذا شىء غريب ولكن الغريب كل الغرابة أن يتفق رأى الغزالى فى العقل مع آراء علماء النفس فى العصر الحاضر .

فإننا نراه يتحدث عن اللاشعور ووحيد الشعور وشبه الشعور والشعور أو العقل الباطن والعقل الواعى كأجزاء للعقل . يقول فى الباطن

فى قصر سيف الدولة ، أو شاعراً من شعراء والده أبى الهيجاء . وحتى هذا الذى ذكروه بحاجة إلى الوقوف عنده ، فنحن نستطيع أن نفهم أن كشاجم حين يكون طباخاً لسيف الدولة ولا يأتى ذكره فى شعره ربما يكون ذلك معقولا ، أما أن يكون شاعرا لأبى الهيجاء بينما لم يرد ذكر لأبى الهيجاء هذا ولو فى قصيدة واحدة من شعر شاعره فهذا هو الذى لا نستطيع أن نسيغه !!

ومع هذا فالباحث لا يصح أن يقف مكتوفا أمام هذه الصعاب ، وإنما يجب أن يعمل عقله فى النصوص التى بين يديه عساه أن يخرج منها بشىء مما ذكروه مشوها ، أو أغفلوا ذكره إغفالا .

فهذا ديوان الشاعر يحدثنا أنه مدح على بن سليمان الأخفش النحوى ، ويصفه بأنه أستاذه ، وأنه قد تخرج عليه (١) ، ويحدثنا ياقوت فى معجمه أن هذا الأخفش مات فى شعبان سنة ٣١٥ هـ ٣) والمعنى هذا أن كشاجم كان قد جاوز مرحلة الطفولة ، ثم مرحلة التحصيل الأولى — على الأقل — قبل هذا التاريخ ، وإلى جانب هذا نراه يرثى محمد بن عبد الملك الهاشمى ٣ المتوفى سنة ٣١٢ هـ ٤ وهذا معناه كما قلنا أن كشاجم لم يكن فى سن الطفولة الأولى إذ ذاك وأنه كان على الاقل فى الحلقة الثانية من عمره ، وهذا كله يقوى عندنا الظن بأن مولده كان فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، وإذا كان قد رجح فى نظرنا ذلك الرأى القائل بأن وفاته كانت ٣٦٠ هـ فمعنى هذا أن حياة كشاجم أربت على الستين ، وهذا ما يؤيده ذكره للشيب والضعف فى مواضع كثيرة من ديوانه .

عبد الجواد الطيب

---

١ النسخة المخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٤٥٧٩ أدب ورقة ٣٢ ، ٣٣
٣ « « « « « « « « « « ١١٧
٢ معجم الأدباء لياقوت ١٣ ٢٤٦ ٤ تاريخ بغداد ١ ٢٤٨

الجزء الأول من أحياء علوم الدين فى بيان حقيقة العقل وأقسامه.

« اعلم أن الناس اختلفوا فى حد العقل وحقيقته وذهل الأكثرون عن كون هذا الاسم مطلقاً على معان مختلفة فصار ذلك سبب اختلافهم. والحق الكاشف للغطاء فيه أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان كما يطلق اسم العين مثلا على معان عدة وما يجرى هذا المجرى فلا ينبغى أن يطلب لجميع أقسامه حد واحد بل يفرد كل قسم بالكشف عنه (فالأول) الوصف الذى يقارن الانسان به سائر البهائم، وهو الذى استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية وهو الذى أراده الحرث ابن أسد المحاسبي حيث قال فى حد العقل أنه غريزة يتهيأ بها ادراك العلوم النظرية وكأنه نور يقذف فى القلب يستعد لإدراك الأشياء « والثانى » العلوم التى تخرج إلى الوجود فى ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد وأن الشخص الواحد لا يكون فى مكانين فى وقت واحد « والثالث » هو انتهاء قوة الغريزة إلى حد معرفة عواقب الأمور وقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة وقهرها . وهو الأس والمنبع، والثانى هو النوع الأقرب اليه، والثالث فرع الأول والثانى والرابع هو الثمرة الأخيرة والغاية القصوى . والأولان بالطبع والأخيران بالاكتساب . ولذلك قال على كرم الله وجهه

رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

نرى الغزالى فى هذا القول قد رتب صفات العقل ترتيباً بديعاً وافق ترتيب علم النفس الحديث موافقة تامة . فقد جعل القسم الأول والثانى من أقسام معانى العقل يقابلان اللاشعور ووحيد الشعور . وقد وصفهما بأنهما الأس والمنبع المتكونان بالطبع، أو هما العقل المطبوع الذى يقابل ما يسميه علم النفس الحديث بالعقل الباطن . وجعل القسم الثالث والرابع فى مقابل شبه الشعور والشعور فقد وصفهما بالثمرة الأخيرة والغاية القصوى للمعرفة التى تأتى بالاكتساب، أو هما العقل المسموع الذى يقابل ما يسميه العلم الحديث بالعقل الواعى . وواضح من تقسيم الغزالى العقل أنه يعتبر العقل هو المعرفة التكيفية النامية ، ولهذا بدأ فى تقسيمه بأول درجات المعرفة وهى المعرفة الغريزية ثم ارتقى منها إلى ما بعدها من المعرفة المكتسبة . وقد أشبه الغزالى فى تقسيمه هذا بعض المعاصرين فى تقسيمهم العقل إلى أربعة عقول وهى العقل الحيوانى والعقل الانسانى الهمجى والعقل الثقافى القديم والعقل الثقافى الحديث .

وننتقل الآن بعد الذى قدمناه عن العقل عند الغزالى إلى الأجزاء التى يتألف منها كل قسم من الأقسام الأربعة للعقل وهى فى نظر الغزالى ثلاثة « العلم والحال والعمل . فالشعور واللاشعور بل كل عملية عقلية تتكون عند الغزالى من هذه الأجزاء الثلاثة . وهذا ينطبق تمام الانطباق على ما يقوله علماء النفس المعاصرون فى هذا الموضوع يقولون : إن الشعور أو اللاشعور بل كل عملية عقلية تتألف من ثلاثة مظاهر أساسية وهى الادراك أو المعرفة، أو الوجدان والعاطفة؛ والنزوع أو المحاولة، فالادراك هو مجرد علمك بما فى نفسك من الخواطر أو بما يحيط بك من الأشياء من غير أن تنفعل أو تتأثر . والوجدان هو ما تجده فى نفسك من لذة أو ألم يصحب الادراك أو النزوع . والنزوع هو محاولة أو جهد يبذله الانسان ليستديم الارتياح الذى وجده أو يبعد عما شعر به من ألم وضيق .

نرى فى هذه المقابلة توافقاً تاماً بين تحليل الغزالى للعملية العقلية التى يتألف منها كل قسم من أقسام العقل والتحليل الحديث .

فالعلم عند الغزالى هو الادراك أو المعرفة . والحال عنده هو الوجدان أو العاطفة أى الحال الذى يكون عليه المتأثر المنفعل بعاطفته ووجدانه . والعمل عند الغزالى هو النزوع والمحاولة .

ونبتقل بعد هذه المقابلة بين أجزاء العملية العقلية التى يتألف منها الشعور واللاشعور عند الغزالى وعلم النفس الحديث إلى الجزء الأول من أجزاء هذه العملية العقلية وهو (العلم) أو المعرفة أو الادراك لنرى ما عند الغزالى فى هذا الموضوع فنقابله بما عند علم النفس عنه .

وهذا ما سنقوم به فى المقال القادم إن شاء الله .

عمرى الحسينى